4. المخاض العسير

بعد التقلبات الهامة وحركة التجديد الناشطة التي عرفتها الجغرافيا خلال الخمسينات والستينات ظهرت المادة في ثوب قشيب خلع عليها مسحة من القوة والتماسك. فمعظم الباحثين في الستينات يباركون الثورة ويعملون على إنجاحها بقناعة تامة وعزم لا يلين. كما أن النتائج المحصل عليها لا تخلو من إغراء وربما من أهمية يشدان الاهتمام بعد فترة هجران. ثم إن الدقة العلمية التي أصبحت تطبع البحث الجغرافي أخذت تجلب إلى المادة احترام التخصصات الأخرى واعترافها بها.

لكن هذه المكتسبات سرعان ما ضاعت وتبخرت كحلم جميل بسبب تفرق المجددين أنفسهم وانقسامهم. ففي الوقت الذي اعتقد فيه الجميع أن هؤلاء أصبحوا حقا أمة واحدة موحدة تتشوف إلى غد مشرق بفضل منهجها العلمي الرصين وتصورها الجغرافي الواضح، جاء الواقع يخيب الآمال ويرد الاحتمال. فالمصلحون ليسوا سوى أهل بيت فت تفرقوا شَذَر مَذَر، فتعالت أصواتهم متضاربة وعمَّ الاضطراب وزاد التردد واستقر الشك إلى درجة تلاحق «الثورات» بإيقاع لم يعد فيه للنظرية المعيارية معنى !

فما هي أسباب هذه النكسة الخاطفة والكبوة المباغتة ؟ لعل الأسباب تكمن إجمالا في تغير الأوضاع التي يمكن تلخيصها في أمرين اثنين : أما الأول فيرجع إلى التطور العميق الذي عرفه المجتمع الغربي الذي بات يكل من «حضارة الأشياء» ويلفظها شيئا فشيئاً بحيث أصبح الرأي العام وكل وسائل الاعلام تشجبها وتدعو إلى التنصل من إيديولوجية التقدم والتنمية التي كانت شعار العقدين الأخيرين. وفي هذا السياق، وهذا

هو الأمر الثاني، كان حتماً أن تتغير تماما النظرة إلى العلوم الاجتماعية التي عملت الفلسفة على تطويرها. فلا مناص إذاً من الأخذ بعين الاعتبار كل هذه الحيثيات لكي نفهم كيف تسلل الشك وانتشر التردد في مادة تبدو محكمة البنيان، متينة الأركان.

1 ـ مدنيـة الغـرب والحقـائق المـرة

بمجرد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها شرعت أوروبا في تضميد جراحها وإعادة بناء كيانها. وإلى غاية الستينات كان هناك إجماع لدى الرأي العام على اعتبار التنمية الاقتصادية أهم قضية على الاطلاق. وبالفعل عرفت هذه البلدان طفرة اقتصادية جبارة لو لم تتم للأسف على حساب البيئة الطبيعية من جهة والتوازن الاجتماعي من جهة ثانية. وإذا كان الشعور بضرورة المحافظة على الطبيعة والاعتناء بها شعوراً قائما في مستهل القرن وحتى في فترة ما بين الحربين، فهو سرعان ما أخذ يتراجع بعد الحرب أمام فكرة «التقدم والبناء والتشييد». فكل شيء يهون في سبيلها. فالمنشآت العصرية بسدودها الضخمة وأبراجها الشاهقة وطرقها الساخبة رسمت للإنسان الغربي محيطاً جديداً قوامه الحديد والخرسانة وباتت في أعين الساسة والعامة منجزات جميلة ومعابد تمجد آلهة التنمية التي نسيت أو تناست أمر الانسان، فاحتدمت الفوارق الاجتماعية وضاعت حقوق الضعفاء.

1.1 ـ مشكل البيئة الطبيعية

إن الفساد الذي حدث بفعل التقدم المزعوم والذي عمّ كل مناحي الحياة وأثر بشكل فاضح في المحيط الطبيعي للإنسان، أعقبته ردود فعل سارت تطالب بتدارك الوضع ومراجعة الموقف. ولقد كانت للولايات المتحدة وبلدان أوروبا الشمالية قصب السبق في هذه المبادرة التي وجدت هنا الآذان الصاغية والاستجابة التلقائية[1]. ولعلنا نتذكر أن الاهتمام بالبيئة في الولايات المتحدة اهتمام قديم يرجع إلى القرن الماضي وذلك بفضل حركة

1

ربما تعود هذه الاستجابة السريعة إلى التقاليد البرتستانية عند اللوثيريين فإذا كان الكاثوليك يشددون على علاقة الإنسان بالإنسان، دون أن يجعلوا من علاقته بالبيئة أمراً واجباً، فإن البروتستنت ينظرون إلى الطبيعة نظرة إجلال واحترام، بحيث لا يجوز الإخلال بها والتعدي عليها لأنها من خلق الربّ. ولا بأس بهذه المناسبة أن نذكر أن الإسلام يجمع بين الموقفين معاً ضمن منهج متكامل قوامه وحدانية الخالق.

التوعيـة النشيطة التي قادها جماعة من المهتميـن بشؤون الغابة مثل **جِفُرْد پِنْشت*** والتي تلاحقت على فترات كانت أولاها تلك التي دشنها الرئيس **ثِيُدورْ رُوزْفِلْت*** سنة 1901 واستمرت إلى غاية الحرب العالمية الأولى، وإن كان الاهتمام بالبيئة قد تراجع لفائدة الانسان الأمريكي الذي أصبح عرضة لأخـطار الادمان على الخمر من جهة و «تكاثر الأجناس السافلة» من جهة أخرى ! لكن الانفراج الاقتصادي الذي عرفته البلاد في العشرينات أرقد هذه المخاوف فترة وجيزة لتنهض من جديد على مشاكل أخرى كمعضلة انجراف التربة الذي اتخذ حجم كارثة حقيقية، إذ من المعلوم أن التعرية أصابت في ولايلتي أُكْـلَهُما وتِكْـساس وحديهما ما لا يقل عن 50.000 كلم² لم يمر على استغلالها سوى أربعين سنة فقـط ![2] كما أن الأبحاث أظهرت خطورة الوضع بالمناطق الجنوبية التي تتعرض باستمرار إلى التخديد وإفقار التربـة. وهكذا اضطرت السلطات الفدرالية إلى اتخاذ التدابير اللازمة وطرح مشروع تهيئة حوض نهر تِـنِسي* على عهد الرئيس **فرانكْـلِن رُوزفـلت***. لكن الحرب العالمية الثانية، ثم الرخاء الذي عم البلاد في الخمسينات وجها الاهتمام إلى قضايا أخرى مع متابعة المشاريع القديمة. وهكذا تأسست جمعيات صرفت مجهوداتها على المحافظة على الأنواع المهددة بالانقراض[3]. كما سخـر بعض الأدباء والكتاب أقلامـهم للتعريف بالمشكلـة والدفـاع عـن الطبيـعة[4]. ومما لا شك فيه أن هذه المساهمات جميعاً عملت على توعية الجمهور بأهمية القضية وحقيقة الخطر المحدق بأكثر المناطق الزراعية غنىً وأكثرها تعرضاً للتدهور والخراب، هذا في الوقت الذي غدت فيه أشباح الـذرة المرعبة تلـوح في أفـق حالك. فاستدراكاً للوضع ودرءاً للأخطار ظهرت في الستينات بالولايات المتحدة أول جماعات لحماية البيئة، ثم تلتها بعد بضع سنيـن بلدان أوروبا الغربية.

* Gifford Pinchot

* Thedore Roosevelt

2

المقصود بهذا تلك الظاهرة المعروفة بالعجاجـة أو «حـوض التـــراب» (Dust bowl).

* Tenessee Authority Valley

* Franklin D. Roosevelt

3

من جملة هذه المبادرات يمكـن ذكر حماية أشجـار «السِّيكـوبا» العملاقة بمنطقة كَلِفُرنيا والمواقع الجبلية مثل «سِيرّا كلوب» (Sierra Club).

4

ونذكر منهم على سبيل المثال

Leopold (Aldo), **A sand country almanac**, New york, Oxford University Paris, 1949.

Carson (Rachel), **Printemps silencieux, Paris, Plon, 1963.**

2.1 ـ مسألـة العدالـة الاجتماعيـة

إذا كانت الثورة الصناعية الجديدة التي حققها الغرب بعد الحرب قد أصبحت تكلفه من جراء العبث بالطبيعة حتى عمَّ الفساد البر والبحر ثمنا باهضاً وتعرضه لمخاطر لا قبل لبنـي الانسان بها، فإن النماء الاقتصادي

الذي واكبها أخذ هو الآخر ينقلب من نعمة عابرة إلى نقمة ناغضة على إثر تحريك غير مضبوط للمجتمع، إذ تزعزت أركانه وتفككت عناصره حتى تباعدت شرائحه وتكرست طبقاته. وهكذا، وفي الوقت الذي تعالت فيه أصوات أنصار الطبيعة، انطلقت صيحات الراديكاليين من كل جهة تندد بالعاهات الاجتماعية وتستنكر الفوارق الطبقية وتطالب بتطبيق العدالة الاجتماعية كما فعل **مَايْكل هارِنْتَن***، الذي استطاع أن يهزّ الضمير الأمريكي حينما كشف عن الوجه القبيح لأمريكا ومدى مشكلة الفقر في أغنى بلدان العالم على الإطلاق ![5] فكيف يستسيغ المرء الفقر المدقع والحرمان التام اللذان يحاصران الملايين من الناس في أقوى دولة في الدنيا وأكثرها تقدما ؟[6]

ولا شك أن المسألة الاجتماعية، التي لا تزيد مع الأيام إلا تعقيداً، هي التي حولت الرأي العام في السبعينات عما كان عليه في العقدين السالفين، الأمر الذي جعل الباحثين من الجغرافيين يتساءلون عن دورهم في هذه المعمعة وما عساهم أن يقدموه. فهل من الصواب أن يقضي الانسان سحابة عمره ويصرف جل جهده في فحص النظريات وتقليب المقولات بينما تستصرخ الدنيا ويستنجد الانسان ؟

إن مشكلة البيئة وما يترتب عنها من أخطار حقيقية ومسألة المجتمع وما يتولد عنها من متاعب متزايدة قضيتان قمينتان بقلب المفاهيم ومراجعة المواقف وتجديد الرؤى؛ غير أن هناك مسألتان أخريان ستهزان، بدرجات متفاوتة، المجتمع الغربي وتجعلانه يعمق تساؤلاته حول نفسه وحول العالم.

3.1 ـ أزمة الطاقة والخوف من المستقبل

إن ما أسماه الغرب في أعقاب حرب أكتوبر 1973 بين المسلمين وأعدائهم على أرض المشرق العربي بأزمة الطاقة كان حدثا ذا بال أجج ولا شك من حدة الشعور بوطأة المسألتين السالفتي الذكر إلى حدّ أمست فيه بعض الأوساط تتساءل عن سلامة الاختيارات وتتحدث بصوت عالٍ عن مزالق التنمية الطائشية التي قد تلقي بالجميع إلى التهلكة، أغنياء وفقراء على حد سواء !

* **Michael Harrington**

5

Harrington (Michael), **The other America. poverty in the United States,** New York, Macmillan, 1962, traduction française, **l'Autre Amérique : La pauvreté aux Etats-Unis,** Paris, Gallimand, 1967.

6

بالنسبة لأوروبا أنظر مثلا :

Mathieu (Gilbert), **la disparité croissante des revenus en Françe,** Le Monde, 12-13 dec. 1965. p. 11.

ثم أن أزمة الطاقة هذه كشفت للغرب ضعفه وأثبتت له مدى ارتباطه بالعالم الخارجي. وهكذا بات الغرب يتشكك في قيمه السائدة، تلك القيم التي تم حولها الإجماع والتي على أساسها بني المجتمع؛ حتى أن هناك من المفكرين من أصبح ينادي بالعدول عنها والتخلص منها لفائدة مجتمع يتلاءم وطبيعة الانسان[7]. ومعنى هذا أن هناك إدانة شاملةً ورفضاً باتّاً لهذه المدنية الآلية التي جاءت تشوه كل شيء من عمران وتصنيع... الخ.

وفي غمرة هذه الصحوة أخذ الغربيون يعضون على أصابعهم ويندمون على تصرفاتهم الحمقاء التي اقترفوها باسم التطوير كتلك التي تمت مثلا في المدن العتيقة التي تعرضت إلى تحطيم شنيع لإقامة مشاريع فاشلة. وعليه لم يعد الرأي يتباهى بالمنجزات العصرية ويفاخر. كما أن المسؤولين على التعمير ساروا يتراجعون بسرعة عن تحطيم الأحياء القديمة التي أصبحت محط عناية بالغة واهتمام متزايد بغية ردّ الاعتبار إليها بالترميم والتجميل واسترجاع الفئات الموسرة التي كانت قد هجرتها من قبل.

4.1 ـ احتدام التباين العالمي

إن التفوق الاقتصادي الهائل الذي أحرزه الغرب والرفاهية المادية التي واكبته ثمار حلوة لكفاح مرير وجهد جهيد من أجل تحصيل العلم وتنظيم الانتاج. ومع ذلك فهل ننسى أن تلك الغِلال جاء كثير منها عن طريق الاستغلال ؟ ألم تتعال منذ الستينات أصوات منصفة وأقلام نزيهة وتستيقظ ضمائر حية تفضح الاستعمار الجديد الذي خطط لـ «نهب العالم الثالث»[8] والسطور على خيراته واسترقاق أهله ؟

وبفضل هذه الحملة التي قادها رجالات الفكر والسياسة في كل أنحاء العالم أصبحت مسألة التفاوت بين الأمم والشعوب هاجسا آخر لدى الرأي العام الدولي[9]. لكن القضية اتخذت بعداً أوسع لما انطلقت بعض الدوائر المختصة تحذر من الخطر الداهم الذي يتهدد البشرية بسبب التنمية المفرطة وغير المتبصرة كما يقول تقرير **ميدَاوْز** المعروف[10] والذي هو عبارة عن دراسة، كان لها وقع كبير على الرأي العام الدولي في السبعينات، تنطوي

7

Schumacher (E.F.), **Small is beautiful, une société à la mesure de l'homme**, Paris, Le Seuil, 1978.

8

«نهب العالم الثالث» تعبير لأحد أولئك المفكرين. وهو عنوان لكتاب مشهور صدر في منتصف الستينات :

Jalée (Pierre), **Le pillage du Tiers Monde**, Paris, Maspero, 1965.

9

يشكل موضوع التفاوت بين شعوب العالم أحد المواضيع البارزة المطروقة في السبعينات. ونظراً للعدد الكبير في الدراسات في مختلف التخصصات فقد تتعذر الإشارة إليها، لذلك نحيل القارىء إلى كتاب إيف لكوسْت الذي يذكر أهمها

Lacoste (Yves), **Géographie du sous-développement**, Paris, P.U.F, 3° édit., 1976.

10

Meadows (Donella H.) et al, **Halte à la croissance**, Paris, Fayard, 1973.

على رؤية متشائمة جداً بالنظر إلى محدودية موارد الأرض التي تسير إلى النفـاد، الأمر الذي قد يؤدي إلى ما لا تحمد عقبـاه بالنسبـة لكل سكان المعمورة.

2 ـ طـروحات جديدة في فلسفة العلوم

بعد النجـاح الباهر الذي حصلت عليه المناهج المستوحاة من الأبحاث التطبيقية والوسائل الكمية التي لم يعد أحد يماري في شأنها، راح عدد متزايد من العاملين في حقل العلوم الاجتماعية يسعى إلى تطبيق نفس المنهج المطبق في العلـوم «التجريبيـة» كالفزياء والطبيعيات. وهذا الطموح العِلـموي، أو بالأحرى الحلـم العِلموي، الذي طالما راود الجغرافيين، هو الذي سيلـقي ببعض هؤلاء في أحضـان الوضعية الجديدة التي رفع لواءها ونادى إلى اعتناقها **دَيْفـد هَـارْفي**[11].

1.2 ـ «مـدرسـة فرانكفورت» والانتقـادات الأولـى

لكن إذا كانت الجغرافيا قد أخذت تنسـاق لتيار الوضعية الجديدة رغبة في تحقيق مشروعها العلمي، فـإن بعض العلوم الاجتماعية الأخرى كالتاريخ والإناسة ظلت تطرح عموما نفس القضايا التي كان يعالجها كبار فلاسفـة العلوم الانسانية الألمان أمثال **فيبر** و **رِيكَرْت** **وسِمَّـل** و **دِلْتي** و **درويْسَـن**[12]. غير أن تلك التساؤلات مـا لبثت، بين الـحربين، أن اتجهت، وان على استحـياء[13]، شـطر الماركسية بتشجيـع من ثلاثي مدرسة فرانكفورت الشهير : **تِيـودور أَدُرْنـو***، **مـاكس هورْكايْمر*** و **هِربِرْت ماركوز*** فلما انتصرت النازية وأغلقت أبواب معهد فرانكفورت للأبحاث الاجتماعية الذي كان يعد من أهم المنتديات الفكريـة بألمانيا وقتـذاك، اضطر هؤلاء اليهود الثلاثة على الهجرة إلى الولايات المتحدة. وإذا كانـوا في البداية قد أعجبوا بعلم الاجتماع الأمريكي، فإنهم سرعان ما تنكبوه ثم أخذوا مع الخمسينات يتصدون له بالنقـد والتجريـح.

فهل يعقل أن يكون البحث العلمي، على حد قول أَدُورنـو، مجرد وصف للواقع كما لو كان هذا العالم المحيط بنا هو الصورة الوحيدة لـه ؟ ألا

11

Harvey (David), **Explanation in geography,** op. cit.

12

راجـع «الثـورة المحافظـة» (الفقرة 3.1.2.2 من الفصل الثاني : ازدهار المدارس) التي تميز بين العلوم «العقلية» أو «الروحية» والعلـوم الأخرى، والتي تـؤكد على عدم جدوى المنهج الوضعي بالنسبة للأولى.

* **Theodor Adorno 1903-1969**
* **Max Horkeimer 1895-1973**
* **Herbert Marcuse 1898-1079**

13

إن «النـظرية النقـدية» التي تقوم عليها «مدرسة فرانكفورت» ظلت رغم انتمائها الصريح للماركسيـة، حريصة على نبذ بعض معتقـداتها الأصولية وتجاهل منجزاتها التاريخيـة، خصوصا منها تلك التي تتـصل بالنـظام الستاليني.

تكتسي، والحالة هذه، تلك المناهج التي تدعي الموضوعية لمجرد توظيفها وسائل التكميم المتنوعة من اختيار العينات وجرد المعلومات، ألا تكتسي إذاً صبغة أيديولوجية معينة تزكي في نهاية الأمر الوضع القائم ؟ تلكم هي بعض القضايا الجوهرية التي سيعرض لها الفيلسوف الموسيقي أدُرْنو بعد عودته من المهجر. وهي مواضيع مثيرة من شأنها أن تستهوي طلاب ماركوز الذي بقي يعمل بجامعة بِرْكلي. ومع مطلع السبعينات جاء **يورْجَنْ هابِرْماص***، وهو فيلسوف وعالم اجتماعي يتزعم «الجيل الثاني» للمدرسة ويطمح إلى جمع شتات العلوم الاجتماعية وضمها في كيان موحد[14]، انطلاقا من نفس القناعات الماركسية، لكن بعد تنقيتها من شوائب القرن التاسع عشر التي ظلت عالقة بها[15]، الأمر الذي ساعد كثيراً على انتشار تلك الأفكار.

2.2 ـ الحركة النقدية بالولايات المتحدة

إذا كانت المناظرة في أوروبا تدور أساسا حول القضايا الفلسفية والمذهبية الماركسية فإن الجدل في الولايات المتحدة يتناول مسألة المؤسسات عبر الانتقادات التي سارت توجه إلى علمي الاقتصاد والاجتماع بالخصوص. ولعهل من أبرز تلك الانتقادات الملاحظات الوجيهة التي أبداها **جون جَالْبرايْث***، الذي يعيب على الاقتصاديين خلطهم للقضايا وعدم التمعن فيها، إذ لا يميزون بين مركبات الصناعات الحربية الجبارة صاحبة النفوذ الواسع وعالم الاقتصاد الحرّ الذي، وان سيطرت عليه المنافسة الضارية، لا يشكل بأي حال من الأحوال الميدان الوحيد للتنظير الاقتصادي[16].

أما من ناحية علم الاجتماع فها هو **ألْفِن جُولدنَرْ*** يدعو ثوراً ويحذر من أزمة قادمة تصيب السوسيولوجيا الغربية[17]. هذا في الوقت الذي شرعت فيه السوسيولوجيا الوظيفية[18] تتساءل بإلحاح عن إمكانية التوفيق بين الأنظمة التقليدية والمستجدات الطارئة، إذ لا يجوز بتاتا التغاضي عن التوترات والتطورات التي باتت تعصف بالمؤسسات الموروثة وتكسر قوالب التفكير الحالية.

14

Habermas (Jürgen), **Knowledge and human interest,** London, Heineman, 1972.

15

Huisman (Denis), **Jürgen Habermas, in Dictionnaire des philosophes,** Paris, P.U.F, 1er édit. 1984, p 1123 et suiv.

16

Galbrailh (John Kenneth), **Le nouvel Etat industriel,** Paris, Gallimard, 1968.

17

Gouldner (Alvin), **The coming crisis of Western sociology,** London, Heineman, 1971.

*** Jürgen Habermas 1927**
*** John Galbraith**
*** Alvin Gouldner**

18

الوظيفية في علم الاجتماع هي نظرية أو مجرد فرض أخذا عن الإناسة (الانتروبولوجيا) (راجع الفقرة 1.2.3.1. من الفصل الثاني) لتفسير الواقع الاجتماعي ومكوناته والأدوار التي تلعبها والوظيفة التي تقوم بها بالنسبة لهذا المجتمع الذي ينظر إليه كنظام متماسك. وهكذا فإن التحليل الوظيفي في السوسيولوجيا يرمي إلى تفسير السلوكات الخاصة داخل المجتمع على أنها حصيلة متوازية لعدد من الأنظمة المعيارية المعمول بها داخل ذلك المجتمع.

ويتم المنهج الوظيفي على مرحلتين : ففي الأولى يعمد الباحث إلى تحديد أنظمة أولية يبلورها تواطأ الأدوار التي تخلق داخل المجتمعُ مواقع معينة تتناسق فيما بينها. أما الثانية فهي تأخذ المكونات أو الأنظمة الفرعية المحصل عليها لتبني بها المجتمع برمته.

3.2 ـ محاسبة الكميين

إن التأملات الفلسفية والتحليلات الابستمولوجية وما صاحبها من انتقادات لم تنحصر في الواقع في دائرة معينة من التخصصات كالاقتصاد أو علم الاجتماع كما ذكرنا قبل قليل، بل شملت أيضاً جلّ العلوم الاجتماعية، هذه العلوم التي افتُتِنت، بدون استثناء وأيما افتتان، بالوسائل الكمية التي لا تقل، في رأي بعض المفكرين، خطراً عن مواقف المنظرين في مختلف العلوم لأن الذين يوظفون هذه الوسائل عادة ما يشتغلون بالتخطيط، ومن أجل ذلك يضعون نماذج للتوقع قد تكون أدوات خطيرة. ومع ذلك لا تستطيع السلطات الاستغناء عنها من أجل تحديد سياستها الاقتصادية والاجتماعية من جهة، والتحكم في مشاريع التهيئة المكانية من جهة أخرى.

فهل يعقل اعتماد هذا الأسلوب الذي لا يعدو، في النهاية، أن يكون مجرد إسقاط ورجماً بالغيب ؟ وحتى لو سلمنا، يقول المفندون، بسلامة التنبؤات المستنبطة من النماذج، فهذا لا يبرر الاختيارات ولا يضفي عليها الشرعية. ثم هل التطور العفوي للأشياء يعني بالضرورة أمراً مرغوباً فيه، أو حتى حتمية لابد من قبولها ؟ وبما أن العلوم الاجتماعية تعمل فقط على مدّ الحكام بأدوات التخطيط وتزودهم بالمعلومات الضرورية لتلبية الحاجيات المرتقبة للسكان فهذا يعني أنها تزكي النظام القائم ولا تسعى أبداً إلى انتقاده.

4.2 ـ تجاوز السلوكية ومفارقة الوضعية

إن الحكم بالفشل على النظريات الاجتماعية والاقتصادية التقليدية وما يترتب عنها من آثار سيئة في نظر كثير من الفلاسفة جعلهم بالطبع تجتهدون لطرح بديل لها. فهل يرضون بالسلوكية بديلا ؟ كلا لأن السلوكية بالنسبة للإبستمولوجيين المحدثين، وإن كانت تنتقد تلك النظريات، فهي لا تسعى إلى نقضها. فكيف تفعل هذا وهي تتأثر بها وتأخذ عنها الكثير ؟ غاية ما في الأمر كما يذكر هؤلاء الابستمولوجيون أن السلوكية حاولت أن تنقح صورة الانسان التي رسمتها النماذج الاقتصادية والاجتماعية الجاري بها العمل. وهو تنقيح يستعين بالبحث النفساني الذي تأثر بالوضعية المنطقية أكثر مما تأثر بها علم الاجتماع.

وفي سياق هذه الاتجاهات الفكرية التي اصطلح عليها في العلوم الاجتماعية بالثورة على المذهب السلوكي، أصبح من الضروري البحث عن حل مُرضٍ ظن الكثير أن مفاتيحه بيد الفلاسفة الألمان الذين عاشوا في أواخر القرن الفائت والذين كانت تعاليمهم تنص على مسألة هامة مفادها أن الأنظمة الاجتماعية ومنطقها تظل مستغلقة مادامت القيم التي تحرك تلك الأنظمة مجهولة. لكن كيف تتحقق هذه الغاية ؟ وبعبارة أخرى كيف يمكن استجلاء ما لا يستطيع البحث الموضوعي إدراكه ؟ الجواب : أن يأخذ منهج العلوم الاجتماعية بأساليب الترميزية* [19] وطرقها وبفن تأويل النصوص على غرار ما اعتاده اللسانيون والمؤرخون منذ زمن طويل حيث أن تأمل الكلمة ومقارنتها بغيرها من الألفاظ تسمح تدريجيا بتقمص شخصية الكاتب والنفاذ إلى منطقة. ومعنى هذا أنه بالامكان أن نتصور العلوم الاجتماعية وتطبيقها على نسق آخر كما يرى **جورج هَانْرِك فُنْ رايْت*** [20].

غير أن الأمريكيين يردون الفضل في هذه الاجتهادات إلى **ألفرِد شُتز*** [21]. ومهما يكن من أمر تظل الفلسفة الألمانية السائدة في العقدين الأولين من القرن المرجع الأساسي وليست أفكار دِلْتي أو سوسيولوجيا فيبر. وهذا ما جعل الظاهريات، على مذهب **هسْرل**(1859 ــ 1938)، أي الظاهريات المتعالية* تأتي بالجديد في دراسة خصوصيات الظواهر الانسانية والاجتماعية، إذ تعمل الظاهريات المتعالية كما نعلم على توصيل «العقل بالتحليل المتعالي إلى محاذاة شطر الشعور [22] المحض عن المعطيات التجريبية إلى محاذاة (الأنا) في سبيل بناه الأساسية وتبيين الخصائص الذاتية لكل ما يمكن معرفته» [23].

فالظاهريات إذاً تقف موقفاً مقابلاً للعلوم الوضعية التي لا هدف لها. ولهذا وجب على العلوم الاجتماعية اعتبار الملاحظة الابستملوجية الآتية : وهي أن عالم الإنسان عالم القصدية وليس عالم الأشياء الذي يتصف بالموضوعية وبمعنى آخر فإن المذهب الوضعي عاجز كل العجز على استيعاب الواقع البشري، هذا الوضع الذي اختزلته الوضعية وراحت تنظر إليه كمجرد نظام آلي.

19

الترميزية هي النظر في قيمة الحكم والاستدلال، مضموناً ومصدراً. القضايا الناتجة عن التأويل والنقد، أي المفهوم وهو ما يمكن تصوره، وهو عند المنطقيين، ما حصل في العقل ويخص كل الآثار المكتوبة ثم كل أشكال التعبير الإنساني مكتوبة أو غير مكتوبة، وبالتالي مفهوم الوجود الإنساني

*** Herménentique**

Georg Henrik von Wright

*** Alfred Shutz**

20

Von Wright (Georg Henrik), **Explanation and understanding,** Ithaca.
New York, Cornell University Press, 1971.

21

Shutz (Alfred), **On phenomenologie and social relations,** Chicago, Chicago University Press, 1970.

*** Phénoménologie transcendentale**

22

«يبحث هسرل في بنية الشعور فيميز بين الأنا المتعالي، أي الموجود في طبيعة العقل، وبين الأنا النفسي. وفي سبيل ذلك يستخدم عملية ستلعب دوراً بارزاً في ظاهريات هسرل وهي عملية «الإبوخيه» أي تعليق الحكم. يقول هسرل : «بواسطة الإبوخة الظاهرياتية أرد أناي الانساني الطبيعة والحياة النفسية ــ وهما ميدان التجربة النفسانية الباطنية ــ إلى أناي المتعالي الظاهرياتي. والعالم الموضوعي الذي يوجد بالنسبة إليّ، والذي وُجِدَ أو سيوجد بالنسبة إليّ، هذا العالم الموضوعي بكل

5.2 ـ بديل الماركسية

لما أكدت الابستمولوجيا عجز الوضعية وعدم قدرتها على بلوغ الحقائق البشرية إلتفت البعض إلى الماركسية وتوسموا فيها خيراً، حتى لو لم تكن المادية الجدلية[24] وما يستنبط منها من نماذج في الخمسينات، من المراجع المعتمدة بكثرة؛ اللهم ما كان من الستالينيين الذين أخذ عددهم يتزايد في كل من فرنسا وإيطاليا. أما بالنسبة للفلاسفة فهم لا يعتدّون في هذه الفترة بماركس بقدر ما يعتدّون بهيجل. ومع ذلك فهم يرون أن الماركسية لو تخلت عن المقولات الشائعة للمادية الجدلية التي يرددها «الأصوليون» لاستطاعت أن تنتقد العلوم الوضعية بسبب موقفها من الطبيعة البشرية ونظرتها للتاريخ الذي اعتبرته كمجرد تسلسل آلي للأحداث.

ومع ذلك فإن النزعة الماركسية أخذت تتقوى في نهاية الخمسينات خصوصا بعدما التقت بعلم النفس الفرويدي (وإن كان أصلاً برجوازياً) هذا اللاشعور الذي يرده الماركسيون إلى الاغتراب الاقتصادي[25]، ويرجعه علماء النفس إلى الكبت (الليبيدو)[26]، ويربطه اللسانيون بالقيود المفروضة علينا والتي تحد من حريتنا في التعبير.

ومن المعلوم أن مساهمات بعض الباحثين اللامعين أمثال **لوسْيان جُلْدمان*** في التاريخ[27] و **كلود لِفي ستَراوْس***[28] أو **لُوي ألْتوسَر***[29] في البنيوية[30]، عملت كثيراً على تلميع صورة الابستمولوجيا الماركسية بنفس الفعالية التي تميزت بها كذلك مدرسة فرانكفورت وفلاسفتها كـهَبرماص و مَركوز المقيم آنذاك بالولايات المتحدة.

6.2 ـ تأثيرات جانبية

رغم الانتشار السريع الذي عرفته الماركسية والترحاب الحار الذي لقيته في كثير من الأوساط الفكرية، ورغم جاذبية الظاهريات ومكانتها، فإن أغلبية الباحثين الجغرافيين لا يميلون أو لا يقدرون على تناول مؤلفات مستعصية تعسر قراءتها ويصعب فهمها. وهذا ما جعلهم يعزفون عن

موضوعاته يستقي من ذاتي، كما قلت آنفاً ـ كل المعنى وكل القيمة الوجودية التي له بالنسبة إليَّ، إنه يستقيها من أناي المتعالي الذي تكشف عنه الإيوخيه الظاهرياتية المتعالية». وبعد أن رد الأنا هذا الرد وجد أن التركيب الموحد في الأنا هو الإحالة المتبادلة، أو القصدية (التي هي وحدة بين من يفكر فيه)». عبد الرحمان بدوي، **موسوعة الفلسفة**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 1984، ص 540ـ541. وهذا يعني أن «الادراك لا يتم بتأثير العقل وحده، بل يتم بتأثير العاطفة والوجدان» جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، سابق، الجزء الثاني، ص 194.

23

راجع الهامش 12 من الفصل الثالث.

24

«المادية الكلاسيكية» وهي مذهب (ابيقورس) في العصور القديمة ومذهب (لامترى) و (دولباخ) في العصور الحديثة لا تنسب إلى المادة إلا تغيرات كمية، على حين أن المادية الجدلية (وهي مذهب ماركس وأنجلس) تدخل على المادة حركة جديدة تجمع بين التغيرات الكمية والتغيرات الكيفية، وتؤدي في نهايتها إلى قيام حياة روحية مستقلة عن الظواهر المادية، وإن كانت في بدايتها ناشئة عن المادة. وبيان ذلك أن العالم في نظر الماديين الجدليين كل مؤلف من مادة متحركة ذات تطور صاعد على مستويات متتالية، متزايدة التعقيد، في الكم، حتى إذا بلغت هذه المستويات أعلى درجات التعقيد نشأ عنها بالضرورة تحول مفاجيء وتغيرات كيفية جديدة». جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، سابق، الجزء الثاني، ص 309 ـ 310.

المذهبين للاقتباس من العلوم التي استطاعت أن تحقق نوعاً من التطوير والتجديد كما هو الحال بالنسبة للمدرسة التاريخية الفرنسية، مدرسة الحوليات التي تأثر بها عدد من علماء الاجتماع والجغرافيا على حد سواء. في حين انصرف البعض الآخر ينهل من معين الإناسة (الانثروبولوجيا) التي أولت، أكثر من غيرها، اهتماماً لمسألة تعدد الجوانب البشرية، طارحة في نفس الوقت قضية الرؤية الذاتية للموضوع في بعض مراحل البحث.

إن التطورات العميقة التي أخذ الغرب يتعرض لها انطلاقا من عقد الخمسينات وتسارع الأحداث التي شهدتها مجتمعاته خلقت في السبعينات مناخاً متميزاً خيم عليه شعور عام، سواء لدى المفكرين أو عامة الناس، بأزمة القيّم في المجتمع العصري، الأمر الذي جعل الغرب يشك بمرارة فيما حققه من انتصارات مادية، ثم بات يتوجس خيفة من المستقبل وبدأ يحترس من علومه التي مكنته من الدنيا دون نفسه !

ومن المؤكد أنه كان لكل هذه الملابسات تأثيرات بليغة على الجغرافيا التي أصبحت منذ الخمسينات تتطور بإيقاع سريع جعلها تتنحى تدريجيا عن العلوم الطبيعية التي تربت في أحضانها لتقترب أكثر فأكثر من العلوم الاجتماعية. ومن المؤسف جدا أن تتزامن هذه الخطوة مع انفجار أزمة هذه العلوم نفسها وانهيار نموذجها الذي ترغب الجغرافيا في توظيفه.

3 ـ الجغرافيا في السبعينات : في مهبّ الرياح الفكرية

مما لا شك فيه أن التردد والقلاقل التي اجتاحت الساحة الفكرية في العشرين سنة المنصرمة كانت لها انعكسات مباشرة على مسار الجغرافيا التي أصبحت تتحرك في خطى غير ثابتة. فبجانب المذهب السلوكي الذي دشّن في الستينات حركة النقد، تعالت أصوات تنادي بالإسراع في إصلاح المجتمع وتنقيته من الأدران التي علقت به؛ ثم جاء البعض الآخر يؤكد على مسألة التفاوت الطبقي وما يترتب عنها من حيف ومخاطر.

25

«تذهب الماركسية في تفسير الاغتراب إلى أن بعض الأفراد يغتربون عن أعمالهم لأسباب موضوعية كامنة في علاقات الانتاج، ونسق السيادة الطبقي. مما يؤدي إلى انفصالهم عن العمل أو نتاجه. كما يؤدي في نفس الوقت إلى اغترابهم عن الطبيعة وعن ذواتهم. ومعنى ذلك أن العمل يعتبر شيئاً خارجاً عن العامل وليس جزءاً من طبيعته، مما يخلق عنده شعوراً بالبؤس وعدم الرضا فلا يستطيع أن ينمي بحريته طاقته الفسيولوجية أو العقلية ويفقد حريته واستقلاله الذاتي ويصبح ملكا لغيره أو عبداً للأشياء المادية يتصرف أصحاب السلطة فيه تصرفهم في السلع التجارية». أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 15 ــ 16.

26

«يطلق العالم «سچمند فرويد» إسم ليبيدو على الحيوية للغريزة الجنسية، وقد حرص على أن يؤكد أن الليبيدون لا يشمل غير طاقة الغريزة الجنسية فحسب...» عينه، ص 246.

27

Goldman (Lucien), **Marxisme et sciences humaines,** Paris, Gallimard, 1970.

28

Lévi-Strauss (Claude), **Anthropologie structurale,** Paris, Plon, 1958.

29

Althusser (Louis), Etienne Balibar, **Lire «le Capital»,** Paris, Maspero, 1968.

1.3 ـ بين الماركسية والتصورات الإثنية

1.1.3 ـ التيار الراديكالي

في خضم هذا التشتت الذي طبع الفكر الغربي ورغم تنوع مشاربه وتعدد اتجاهاته التي اكتسحت ميدان الجغرافيا كما اكتسحت باقي العلوم الاجتماعية، راح البحث الجغرافي في السنوات الأولى من السبعينات يستند أكثر فأكثر على المذهب الماركسي كما فعل **ديفيد هارفي** لما عكف على دراسته المدينة. فمن خلال هذه الأبحاث التي استغرقت عدة سنوات وقف هارفي في النهاية على نتيجة اعتبرها أساسية تتمثل في الميز الاجتماعي الذي يشكل أبرز سمات العمران بالولايات المتحدة نتيجة للاختلال السوق العقارية. ولقد دون هارفي هذه النتائج وهذه الأفكار في كتاب شهير تحت عنوان «المدينة والعدالة الاجتماعية» صدر سنة 1972[31]. وتتألف هذه الدراسة من جزئين أبرز المؤلف في أولهما ظاهرة الميز الاجتماعي الذي يطبع المدينة، بينما انكب في الثاني على تحليل الموضوع مستعملا في ذلك الأدوات والمفاهيم الماركسية التي تمثل في رأيه المفتاح الوحيد لفهم منطلق النظام الحضري الحالي، مادام هذا النظام وليداً للرأسمالية.

لكن الجغرافيا الماركسية، أو على الأصحّ بوادرها، كانت قد تجلت قبل ذلك في الخمسينات بفرنسا وإيطاليا وبلدان أمريكا اللاتينية التي اشتد فيها عود اليساريين نقابات وأحزاباً. أما السبعينات فهي العصر الذهبي للماركسيين البريطانيين والأمريكان الذين نجد من بينهم عدداً كبيراً من الجغرافيين المنحدرين من أصل بريطاني[32]. والحديث عن الجغرافيا الماركسية فيه ملحظ إبستمولوجي هام يوحي بالدور الفعال الذي لعبه هذا المذهب في توثيق الصلة بين مادتنا وباقي العلوم الاجتماعية الأخرى التي راح جمهور عريض من الجغرافيين يعب من معينها ويسترشد بها، فكراً ومنهجاً، وإن كانت الكفة في هذه المرحلة ترجح بعض الشيء لفائدة الاقتصاد وعلم الاجتماع الماركسيين اللذين نهضا لإنقاذ المجتمع وتقويم اعوجاجاته[33]. ومع ذلك فإن التيار الجغرافي الراديكالي ليس وليد الماركسية بالضرورة، كما أنه لا يطابقها في كل الأحوال. فقد يتعلق الأمر أحيانا

30

البنيوية Structuralisme أو المذهب البنيي أو البنيانية أو التركيبية هي : «مجموع الأفكار التي تطبق بنوع خاص على علوم الإنسان كعلم النفس وعلم الاجتماع. وتهدف إلى محاولة تفسير الظواهر عن طريق فكرة البنيان أي المجموع المكون من عناصر متصلة ببعضها البعض قادرة على التغير والتشكيل». أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 411 ــ 412.

31

Harvey (David), **Social justice and the city,** London, Arnold, 1972, id **Environnement construit et création de l'espace dans la société capitaliste,** l'Espace géographique, n° 4, 1978.

32

Peet (Richard), **Radical geography,** Chicago, Maaroufa Press, 1971; id, **The development of radical geography in the United States,** Propress in Human geography, vol 1, 1977; id, **Societal contradiction and marxist geography,** Annals, Assocaition of American Geographers, vol 69, 1979.

Blaut (James M.) **The dissenting tradition,** Annals, Association of American Geographers, vol, 69, 1979.

Duncan (James), **Radical geography and marxism,** Area, vol 11, 1979.

33

لقد نشطت هذه الدراسات الاقتصادية والاجتماعية ذات الاتجاه الراديكالي خصوصاً بعد سنة 1968 في أعقاب أحداث ماي الشهيرة التي عرفتها فرنسا والتي كان لها وقع عميق وصدى واسع خاصة في بلدان

بماركسيين أصوليين متشددين وملتزمين قلباً وقالباً، وأحياناً أخرى بمجرد «متمركسين» أو يساريين يميلون إلى التلفيق[34] أو إلى التوفيق[35].

فبجانب الرعيل الأول من معتنقي الماركسية أمثال ديفد هارفي و **رِتْشَرد پيت*** ظهرت كوكبة ثانية أخذ عددها يتزايد سنة بعد سنة وكان من أبرز وجوهها الأمريكيان **كِفِن كُوكْس*** و **إدْوَرد سُوِيا***، زيادة على جماعة ثالثة تتحدث لغة الماركسيين لكنها لا تسلم بكل معتقداتهم. وإذا كانت بلدان أوروبا الشمالية عرفت نفس التطور فإن الوضع يختلف شيئا ما في أوروبا اللاتينية التي لم يحظ فيها التيار الراديكالي في البداية بنفس الاهتمام لأن المذهبية الماركسية هنا خدَشتها التجربة الأليمة للنظام الستاليني الكالح، لكن سرعان ما انشرت الراديكالية وتغلغلت في كل الأوساط حتى كادت مع نهاية السبيعنات تعلن سيطرتها المطلقة.

2.1.3 ـ النزعات الظاهرياتية

لقد كادت الساحة في آخر السبعينات، كما ذركنا، تخلو للاتجاه الراديكالي الذي بات موقنا بثقله الكبير وأهميته المتنامية؛ وإن لم يكن في الواقع يشكل تياراً متجانساً واحداً وموحداً. ولكن هذا التنوع لم يمنع من ظهور اتجاه منافس حتى لو اختلفت أشكاله وتعددت ألوانه لدرجة يصعب معها وضعه تحت لواء واحد. فمع بداية السبعينات وفي الوقت الذي انتصر فيه التيار النقدي، بدأ اهتمام الجغرافيين بالظاهريات يتزايد بعد أن كان من قبل محصوراً في فئة قليلة من الرواد[36]. لكن هاهو ذا **إدْوَرْ رلْف*** ينشر سنة 1970 مقالا يدعو فيه بإلحاح إلى تطبيق المنهج الظاهرياتي في البحث الجغرافي[37]. ثم يليه **يي فو تُوان*** ليدلو بدلوه هو الآخر في نفس الموضوع موضحاً ما لهذا المذهب في رأيه من قيمة في فهم الطبيعة البشرية[38]. ولقد سارع إلى الاستجابة لدعوتهما جماعة من الجغرافيين الأستراليين بزعامة **مَارسَر*** و **پُوِّل** اللذين توسعا بعض الشيء في الموضوع في دراسة نشرت في السنة الموالية لمقال تُوان[39].

وهكذا تجلى منذ السنوات الأولى من السبعينات اهتمام متنام بمسألة علاقة الناس بالمكان، خاصة بالولايات المتحدة حيث درج الباحثون على

أمريكا اللاتينية التي غادرها طوعاً أو كرهاً عدد كبير من الباحثين كالجغرافي مِلْطَن سَانْطُسْ Milton Santos أو عالم الاجتماع مَنْويل كَسْتِلْس Manuel Castells الذي تألق نجمه بسرعة مباشرة بعد نشر كتابه المعروف : **La question urbaine,** Paris : Maspero, 1972 الذي ترجم إلى عدة لغات ليصبح نموذجاً يحتذى به عند تناول موضوع التمدين.

* **Richard Peet**
* **Kevin Kox**
* **Edward Soja**

34

«التلفيقية Syncrétisme هي : «الجمع بين عناصر متميزة عن بعضها البعض مستمدة من أنساق مختلفة ووضعها في نسق واحد كصهر فكرتين أو نسقين دينيين مختلفين متناظرين عادة، أو إدماج أجزاء أو مبادىء أو ثقافات مختلفة متعارضة مع بعضها البعض لتكون مذهباً واحداً، وقد لا يتمشى ذلك مع القواعد السليمة.» أحمد زكي بدوي **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 419.

* **Edward Relph**
* **Yi Fu Tuan**
* **D.C. Mercer**

35

*التوفيقية أو المذهب التوفيقي Electisme يقابل التلفيقية وهو «لا يجمع من الآراء إلا ما كانت وحدته مبنية على أساس معقول. الجمع بين ارآء أو مذاهب مختلفة ومحاولة التأليف بينها لتكون مذهبا واحداً» عينه، نفس الصفحة (419).

36

ونذكر منهم على سبيل المثال

التساؤل حول مدلول هذا المكان. فشتان إذاً ما بين هذه الجغرافيا والتي سبقتها في الستينات ! فإذا كانت الجغرافيا التي تميل إلى الوضعية الجديدة تهدف إلى إبراز انتظام الظواهر وتقعيدها، طارحة جانباً كل الاعتبارات الذاتية التي من شأنها أن تمس بالطابع العلمي للمادة، فإن الجغرافيا الظاهرياتية على العكس تلح على ضرورة ردّ الاعتبار إلى تلك المظاهر النوعية والعينية والاهتمام بالأشياء الفردية والعناية بأحاسيس الناس وشعورهم إزاء الأمكنة حتى نعلم ما يجعلهم يميزون بينها ويدفعهم إلى التعلق بها أو النفور منها.

ولا شك أن الحالة النفسية التي صار المجتمع الغربي عموما، والأمريكي خصوصاً، يعيشانها تحت وطأة المادية العارمة والفراغ الروحي كان من بين العوامل الرئيسية التي مهدت الطريق لانتشار التيار الظاهرياتي الذي استهوى حتى أكبر المتخصصين في الجغرافيا التاريخية، خاصة الأنجلوسكسون منهم كـ **كَارل ساور** الأمريكي أو **كلفورد دارْبي** البريطاني. لكن هذا التيار يتجلى بصورة أوضح في الدراسات الحديثة[40] التي جاءت كرد فعل على المبالغة في التكميم واستعمال لغة الأرقام اللذين يفرغان المواضيع من مادتها البشرية إفراغاً. والتصور الظاهرياتي لم يعمل على تجديد الجغرافيا التاريخية وحسب بل ساهم أيضاً مساهمة فعالة في تطوير الجغرافيا الحضارية[41]. ومن النتائج الكبرى أيضاً لتأسيس الجغرافيا الظاهرياتية أن أصبح بعض الباحثين يولون اهتماماً أكبر للإنسان كفرد كما فعل يي فُو تُوان سنة 1976 حينما نشر مقالاً يتحدث فيه عن «الجغرافيا الإنسية»[42] التي تجعل من الانسان محور الرحى ومحط كل عناية.

لكن هناك من لم يعجبه هذا الثوب الفضفاض الذي حاكته الظاهريات فراح يطرح لها البديل كما فعل **ليونرد جِلْك*** الذي وجد ضالته في المثالية[43] التي، بخلاف الحيثيات المادية والاعتبارات الاقتصادية أو حتى الاجتماعية، تحب أن ترفع من شأن مسؤولية الإنسان وتحدد بالتالي ما يجب أن يكون موقفه من مسألة تنظيم المكان[44].. في حين اعتنق **مارْونْ سَامْولس** الوجودية[45] وأضحى يستجلي من خلال بعض المشاهد بصمات الشخصية المؤثرة فيها[46].

Dardel (Eric), **L'homme et la terre. Nature de la réalité géographique,** Paris, P.U.F., 1952.

Lawenthal (David), **Geography experience and imagination : towards, a geography epistemology,** Annals, Association of American Geographers, vol 51, 1961; id **Past time, present place : landscape and meaning,** Geographical Rewiew, vol 54, 1964.

Wright (John. K.), **Human nature in geography,** Cambridge (Mass.) Harword University Press, 1966.

Gallais (Jean), **Le delta intérieur du Niger, Etude de géographie régionale,** Dakar, Ifan, 1967.

37

Relph (Edward), **An inquiry into the relation between phenomenology and geography,** Canadian Geographer, vol 14, 1970.

38

Tuan (Yi Fu), **Geography, Phenomenology and the study of human nature,** Canadian Geographer, vol 15, 1971.

39

Powell (Joseph Michael), **Phenomenology and related non positivies viewpoints in the social sciences,** Monash publications in Geography, n° 1, Melbourne, Monash University, Departement of Geography, 1972.

* **Leonard Guelke**
* **Marwyn S. Samuels**

40

أنظر مثلا : Harris (Cole), **Theory and synthesis in historical geography,** Canadian Geographer, vol 1, 1971.

إن التيار النقدي (الراديكالي) والاتجاه الإنسي (الظاهرياتي)، اللذان انطلقا كلاهما في غرة السبعينات، يرسمان خطين متوازيين لا يقبلان في صيغتهما الأصلية التلاقي. فالجغرافيا الظاهرياتية لا تعبأ بحل المشاكل التي تطرحها قضية العدالة الاجتماعية التي تحرك الراديكاليين وتوجههم. وهكذا فإن الجغرافيا الظاهرياتية محاولة لفهم الشخص في حد ذاته دون الالتفات كثيراً إلى العِرق أو الجماعة أو الأمة أو الوطنية التي ينتمي إليها ذلك الشخص. فالذي يهمها في المقام الأول هو إعطاء مدلول لهذا الشخص قبل العناية بمحيطه المادي. وباختصار شديد فإن الراديكالي يهتم بالظرف الراهن بينما يعني «الإنسي» بالحياة مطلقاً.

ولقد أفضى هذا التعارض إلى احتدام صراع حقيقي عند منتصف السبعينات بين التيارين. فالراديكاليون يرفضون رفضاً باتاً التصور الظاهرياتي ويذهبون إلى حد وصفه بالسذاجة واتهامه بالترويج لأفكار البرجوازية. ورغم مقاومة المتشددين وعناد المتزمتين من الماركسيين، أخذ بعض الباحثين ينفتح على الظاهريات ويصغي إلى ما تثيره من قضايا وتساؤلات. ولقد تبلور هذا التيار «المخضرم» بوجه خاص لدى المهتمين بالجغرافيا التاريخية بقيادة **أَلَنْ بَيْكَر*** الاستاذ والباحث بجامعة كمبردج[47].

3.1.3 ـ التعقيد بدل التقعيد

قد يكون من الخطأ الفادح والغفلة حصر الفكر الجغرافي المعاصر، كما تذهب إليه بعض المؤلفات والمقالات الأنجلو سكسونية الشائعة اليوم، في نطاق الأحداث التي ميزت عقد السبعينات. فهذه الأحداث التي لا ينكر أحد خطورتها على الساحة الجغرافية لا يجوز أن تحجب عنا ما جرى ويجري خارج الولايات المتحدة وبريطانيا اللتين قادتا الجغرافيا في هذه المرحلة الحساسة. ويكفي أن نذكر حالة استراليا مثلا لإثبات هذا الرأي. فهذا البلد بحكم انتمائه الثقافي للعالم الأنجلو سكسوني كان وما يزال وسيظل يستلهم كثيراً من الأفكار ويستورد العديد من التقنيات وأساليب البحث من الولايات المتحدة وبريطانيا، ومع ذلك ظل يتميز بخصوصيات لا يعرف عنها الجغرافيون في الجانب الآخر من الكرة الأرضية إلّا النزر القليل !

Prince (Hugh. C.) **Real, imagined and abstract worlds of the past,** in C. Baarcl and al, Progress in Geography 3, London, Arnold, 1971.

41

ويتجلى هذا التأثير بصراحة في الانتقادات التي أعرب عنها البعض أمثال :

Harris (Cole), **The historical mind and the practice of geography,** in David Ley, Marwyn Samuels, ed, **Humanistic geography, Prospect and problems,** London, Croam Helm, 1978.

Cosgrove (D.), **Place, landscape and the dialectics of cultural geography,** Canadian Geographer, vol 22, 1978; id, **The myth and the stories of Venice : an historical geography of a symbolic landscape,** Journal of historical Geography, vol 8, 1982.

Duncan (James), **The superorganic in american culturel geography,** Annals, Association of American Geographers, vol 70, 1980.

*** Alan Baker**

42

Tuan (Yi Fu), **Humanistic Geography,** Annals, Association of American Geographers vol 66, 1976.

وللمزيد من الاطلاع على الموضوع راجع :

Entrikin (s. Nicholas), **Contempory humanism in geography,** Annals. Association of American Geographers, vol 66, 1976.

Sanguin (André-Louis), **La géographie humaniste, ou l'approche phénoménologique des lieux, des paysages et des espaces,** annales de Géographie, vol 90, 1981.

Pocok (Douglas), **La géographie humaniste,** in Les concepts de la

ثم إن التركيز على المستجدات فقط قد يجرنا لا محالة إلى كتابة تاريخ مبتور للجغرافيا واغفال الأعمال التقليدية كالجغرافيا التارخية أو الدراسات الإقليمية التي ما برح جمهور كبير من الجغرافيين يمارسونها حتى تومنا هذا؛ ناهيك عن حركة التكميم ومحاولة التنظير التي شهدها عقد الستينات. ومن المحتمل جداً أن يوعز هذا التعميم غير المقصود إلى الاهتمام المفرط الذي أولاه الإبستمولوجيون ومؤرخو الجغرافيا إلى مسألة «المنظومة المعيارية» التي أصبحت الشغل الشاغل لكل العلوم الاجتماعية. وهكذا فإن هذا الإغفال من شأنه أن يخفي حقيقة أساسية لابد من التنبيه لها : ألا وهي تعدد الرؤى الذي بات يشكل أبرز سمات الفكر الجغرافي حالياً.

2.3 ـ العمل الجغرافي : تعدد الاهتمامات

1.2.3 ـ تجديد الصلة بموضوع البيئة

من مميزات العلوم الاجتماعية عموما . والجغرافيا خصوصاً، في السبعينات، تقربها إلى المجتمع والانكباب على همومه والاطلاع على مشاكله بغية المشاركة في تصور الحلول لها. لكن هذا الاهتمام لم يشمل في الواقع كل القضايا التي كانت تشغل بال الرأي العام، بل كاد ينحصر في قضية كبرى : قضية العدالة الاجتماعية، فراح الجغرافيون يستنكرون الميز المكاني المتفاحش ويندون بالأنظمة المسؤولة عن ذلك. وقد يعجب المرء من تثاقل هؤلاء عن تناول موضوع البيئة الذي أصبح كما نعلم من مشاغل المجتمعات العصرية وأحد مصادر قلقها الكبرى، خاصة إذا تذكرنا أن الظروف، قبيل اندلاع الثورة الكمية، كانت مشجعة جداً للقيام بهذا العمل والمساهمة فيه بفعالية؛ حيث اطلع الأمريكان على الجهود الطيبة التي قام بها **مَارشْ**، منذ ما يزيد عن قرن من الزمن، من أجل التعريف بمشاكل البيئة[48] التي ظل **سَاوِرْ** بعده ينبه إليها ويدافع عنها. ثم هل ننسى المناظرة الشهيرة التي عقدت سنة 1956 بمدينة شيكاچو لتدارس هذا المشكل بالذات الذي أصبح يهدد الأرض ؟

géographie humaine, A. Bailly et al, Paris, Masson, 1984.

Fel (André), **La géographie humaniste,** l'Espace géographique, Tome x, n° 4, 1981, p. 299-301.

Levy (Bertrand), « **Humanistic geography » ou le pari humaniste de la géographie anglo-saxonne,** l'Espace géographique, Tome x, n° 4, 1981, p. 301-304.

43

المثالية Idéalisme «اتجاه فلسفي يشمل جانبا كبيراً من المذاهب الميتافيزيقية والعقلية التي ترى أن العقل أو الفكر هو الحقيقة النهائية أو أساس التجربة والمعرفة».

«فمثالية كَنْط ترى أن إدراكنا للعالم الخارجي واعتقادنا أنه حقيقي أو صادق يعكس التنظيم الداخلي للعقل ولعمليات الفكر».

«وتتفق مثالية هيجل مع مثالية كنط وترى أن من المستحيل اعتبار وجود الأشياء بعيدة عن مفهومها وتعمل على إبعاد ثنائية العقل والأشياء بالنظر إلى الأخيرة كتعبير عن فكرة أساسية».
أحمد زكي بدوي، **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**، سابق، ص 203.

44

Guelke (Leonard), **An idealist alternative in human geography,** Annals, Association of American Geographers, vol 64, 1973, id **Historical Understanding in geography, an idealist approach,** Cambridge, Cambridge University Press, 1982.

45

راجع الهامش 2 من الفصل الثاني (ازدهار المدارس).

إلا أن هذا الموضوع الذي يمثل أحد الاهتمامات التقليدية للجغرافيا سرعان ما تراجعت أهميته بعد انتصار الجغرافيا الجديدة التي ألقت على الساحة بكم كبير من المشاكل الطارئة. وفي أعقاب هذا الانحسار انصرفت دراسة البيئة إلى طرق مواضيع محددة يدور أكثرها حول مشكلة الطاقة بدءاً بالحرارة الشمسية وانتهاءاً إلى تحويل المواد العضوية. وبالطبع فإن هذه المواضيع التي أملتها الظرفية الاقتصادية لا يجد فيها الجغرافيون مادة خصبة تغذي بحوثهم.

وهذا ما جعلهم يعملون على تدارك الموقف ويعودون لربط الصلة من جديد بالموضوع موضوحين موقع المجتمعات ضمن الأهرام البيئية من جهة، ومحللين طرق استعمال الطاقة وما يترتب عنه من آثار من جهة أخرى. ولقد وجدت الجغرافيا الطبيعية، التائهة بين أروقة الجغرافيا الجديدة، في هذا الموضوع فرصة سانحة ومطيبة طيعة لتحقيق ذاتها والانفصال أكثر عن الجغرافيا البشرية حيث صارت ترمم بناءها اعتماداً على التحليل البيئي بواسطة المنهج النظامي، سواء تعلق الأمر بوحدات طبيعية أصيلة أو طارئة. كما أن المناطق التي تتعرض فيها البيئة إلى التدهور السريع بسبب خصائصها المناخية جعلت بعض الباحثين ذوي الاهتمامات الاقتصادية أو التاريخية يولون الانتباه إلى تصرفات الإنسان وسلوكه في هذه الأوساط العطوبة المهددة بالخطر.

إن التيار البيئي، وإن كان تياراً هادئاً لم يحدث ضجة كتلك التي أحدثتها الاتجاهات الأخرى، يعد مساهمة حميدة تستحق التنويه إذ شاركت، وربما بنفس القدر الذي ساهم به التيار الراديكالي والتوجه الإنسي، في تجديد المادة؛ هذا في الوقت الذي مازال فيه الاتجاه الكميّ مستمراً.

2.2.3 ـ استثمار الوسائل الكمية

بعد النجاح الباهر الذي حققته في السيتنات لم تعد الطرق الكمية تحتل الصدارة عند الجغرافيين. فرغم افتتان البعض بها والمغالاة فيها فإنه لا يخطر على بال أحد اليوم أن يجعل من الجغرافيا «ذيلًا» لعلم

46

Samuels (Marwy. S.), **Existentialisme and human geography,** in D. Ley, S. Samuels (editi), Humanistic geography, op. cit. cit.

47

Baker (Alan R.H.) **Historical geography : a new begining,** Progress in human geography, vol 4, 1979.

48

راجع الفقرة 1.3.2. من الفصل الثاني (ازدهار المدارس).

الهندسة أو الاحصاء. ومع ذلك فلا يمكن بأي حال من الأحوال ضرب الصفح عنها أو حتى التقليل من شأنها. فالوسائل الكمية حينما يحسن توظيفها قد تصبح من أقوى أدوات البحث وأمضاها. فبفضلها تنوعت أساليب التعبير الخريطي وتيسَّرت، وبفضلها أيضاً تجلت البنيات المكانية وتدققت؛ ناهيك عن قدرتها على مد الباحث بعناصر تفسيرية لم تكن لتخطر على باله بالضرورة. ولذلك باتت غالبية الجغرافيين مقتنعين بضرورة الأخذ عنها والانتفاع بها. فلم يبق إذاً إلا العمل على تطويعها واستثمارها على الوجه المطلوب خدمة الأغراض البحث الجغرافي وتحقيقاً لأهدافه.

3.2.3 ـ مساهمات في التنظير

مهما بلغت درجة اهتمام الجغرافيين بالتكميم وشدة حرصهم على الإفادة منها بأكثر قدر ممكن، فإنهم قد لا يقوون على الاجتهاد والابتكار في هذا الميدان إلا بالقدر الذي يسمح به تكوينهم من جهة، وظروف نشاطهم العلمي من جهة ثانية. ولهذا كان الاجتهاد أكبر في النظريات منه في التطبيقات. فإذا كانت أغلبية الباحثين في الستينات يقنعون بما يقدمه لهم الاقتصاديون من نظريات، مكتفين بتطبيقها دون تمحيص، فإن الوضع بدأ يتغير بشكل محسوس في العقد الموالي.

1.3.2.3 ـ في القضايا الاقتصادية

إن اجتهاد الجغرافيين في موضوع الاقتصاد لا يعني تخطي النظريات القائمة؛ فهي ستظل منطلق بحثهم، إلا أنهم أصبحوا يشاركون في النقاش ويدلون بدلوهم فيه. لقد اعتاد الاقتصاديون منذ الخمسينات استعمال مفهوم الاستقطاب والبحث عن أشكاله، غير أنهم لم يفلحوا أبداً في بناء نظرية مرضية حول التنمية التراكمية المتصلة به. وربما رجع هذا التصور إلى إهمال بعض الجوانب من مسألة الوفورات الاقتصادية الخارجية[49].

صحيح أن هذه الوفورات تشكل كما هو معلوم آلية قوية تستقطب

49 الوفورات الاقتصادية الخارجية أو وفورات الحجم أو المقتصَدات Economies externes, externalités هي اقتصاديات التركز الحضري وتنقسم إلى :

أ ـ اقتصاديات الموقع : وهي المزايا والمنافع الاقتصادية في المنطقة التي تتركز فيها مجموعة من الأنشطة الاقتصادية المتماثلة والتي تعمل من خلال تلك المزايا على خلق ظروف اقتصادية مشجعة على تطوير تلك الأنشطة وجذب أنشطة أخرى تتكامل معها. مثال ذلك سهولة الحصول على اليد العاملة الماهرة والخدمات الصناعية الاختصاصية والتسويق والبحوث الصناعية المشتركة وبرامج التدريب... الخ، بما يحقق التقليل من كلفة المنتج النهائي.

ب ـ الاقتصاديات الحضرية وهي تمثل المنافع الاقتصادية المقدمة إلى النشاطات الاقتصادية المتمركزة في المدينة من خلال المزايا الاقتصادية للمدينة وهي : الأسواق الكبيرة، تطوير سوق العمل الحضري، الخدمات التجارية والمصرفية والتمويلية، الاقتصاديات المرتبطة بخدمات النقل، اقتصاديات الاتصال.

الاستثمارات، لكنه من الضروري وضع هذه المسألة في محيطها الجغرافي لنراها تتفاعل مع معطيات لا تقل عنها أهمية كأنماط المدن وحيويتها وشبكات الاتصال ونشر المعلومات. وبفضل هذا التصور الشمولي خلص الجغرافيون إلى صياغة نظرية تأليفية حول المدن ونطاق نفوذها من جهة، وأقطاب التنمية والشبكات الحضرية من جهة أخرى[50]. وعلى صعيد المدينة تناولوا المواضيع التي سبق للإقتصاديين طرحها في الستينات ثم أخذوا يعمقونها كما فعل ديفد هارفي[51] ثم كيفن كُكْس[52] بعده، مميِّزين كليهما مدى علاقة السياسة بالاقتصاد من جهة، ودور الوفورات في تنظيم المدن الكبرى من جهة أخرى.

ولا يفوتنا بهذا الصدد أن نؤكد كذلك على مساهمات الدراسات الماركسية، جغرافية وغير جغرافية، في تجديد مواضيع الاقتصاد وإغنائها، وذلك بفضل فحص دقيق وبحث معمق لمسألة السوق العقارية مع التأكيد على دور الدولة فيها من ناحية، وتقويم أهمية الريع في النظام الاقتصادي من ناحية ثانية[53]. وكيفما كان الموقف من هذه الآراء فلا أحد ينكر أهمية هذه القضية أو يستطيع التغاضي عنها.

غير أن مساهمات الجغرافيين لم تنحصر في هذه المواضيع فقط بل شملت أيضا معضلة التخلف التي بدأ بعضهم يناولها منذ الخمسينات وإن كان ذلك من منظور اقتصادي بحت، لكن خلال العقدين الأخيرين أخذت هذه المساهمة تنشط أكثر فأكثر لتقدم التفسيرات وتقترح التأويلات، منها ما يعتمد على النظريات الليبيرالية ومنها ما يرجع إلى الطروحات الراديكالية التي تقول بثنائية المركز والهامش[54].

2.3.2.3 ـ في السياسة والاجتماع

إذا كان للجغرافيين بعض الإسهامات التنظيرية في الاقتصاد فلأن صلتهم بهذا الميدان صلة قديمة نسبياً توطدت بوجه خاص مع تأسيس «العلم الاقليمي». ودراسة مواقع الأنشطة الاقتصادية والبحث عن العوامل المتحكمة فيها يجران حتماً إلى ربط هذه الظواهر الاقتصادية بالمسألة الاجتماعية بشقيها السوسيولوجي والسياسي. وهذا ما عبر عنه منذ الستينات

50

للاطلاع على هذه المساهمات الجغرافية أنظر :

Richardson (Harry W.) **The new urban economics and alternatives,** London, Pion, 1977.

Claval (Paul), **La logique des villes,** Paris, Litec, 1981.

51

Harvy (David), **Social justice and the city,** op. cit.

52

Kox (Kevin), **Conflict, power and politics in the city,** New York, Mac, Graw-Hill, 1973.

53

Castells (Manuel), **La question urbaine,** Paris, Maspero, 1975
Lipietz (Alain), **Le capital et son espace,** Paris, Maspero, 1977.
Harvey (David), **The limits to capital,** Chicago, University of Chicago Press, 1982.

54

تشكل الأدبيات التي تتناول هذا الموضوع خزانة هائلة يتعذر حصرها. غير أن هناك عدداً من المراجع المتداولة التي يمكن الاشارة إليها :

Amin (Samir), **L'accumulation à l'échelle mondiale,** Dakar, Ifan, 1970.

Brook field (Harold), **Interdependant development,** London, Methen, 1975.

Emmanuel (Arghiri), **L'échange inégal,** Paris, Maspero, 1969.

Frank (Gunder A.) **Capitalisme et sous-developpement en Amérique Latine,** Paris. Maspero, 1969; **Le développement du sous - développement,** Paris, Maspero, 1970.

بعض الدارسين الذين استشعروا ما للأنظمة السياسية وشبكة الإعلام من أهمية في تنظيم المكان[55]. ولا شك أن هذه التصورات هي التي كانت وراء محاولة تجديد الجغرافيا السياسية التي أقدم عليها بعض الأمريكيين. أما الدراسات الجغرافية التي تناولت بعض الجوانب الاجتماعية فجلها ظل يهتم بالوصف ويستخدم من أجل ذلك التحليل البيئي العاملي[56] كما دأب على ذلك برايَنْ بِري في معالجته للحيز الحضري[57].

إلا أن هناك من حاول تجاوز هذه المرحلة فجاء يقدم التفسير للظواهر المدروسة. ومن بين هؤلاء مثلا **رُوبَرْت مارْدي***، الذي يعلل البنية الحلقية التي تتميز بها جل الحواضر الكبرى بردها إلى تعاقب أطوار الحياة من جهة، وربطها بتوزيع الدخل للساكنة من جهة أخرى.[58] وهكذا فتح باب الاجتهاد فأخذ الباحثون يعرضون لقضايا مجهولة ويبتكرون ما يناسبها من وسائل وأدوات مثلما فعل **ستُوارْت شابِنْ*** حينما ربط بنية المدينة باستعمال الزمن[59] وهي فكرة استحبها الجغرافيون بجامعة لُونْد السويدية، فتبنوها ثم توسعوا فيها ودققوها حتى تبين لهم ما لمفهوم «المسافة القصوى»[60] من أهمية بالغة في فهم بعض الظواهر الجغرافية، خاصة الاقتصادية منها.

ولما أخذت الجغرافيا الاقتصادية في الخمسينات والستينات تهتم أكثر من ذي قبل بالبعد المكاني ظهر لها جلياً ما لهذا المفهوم من قيمة في تنظيم عملتي الانتاج والتوزيع. وبالفعل إذا كانت هناك وحدات اقتصادية، إنتاجية كانت أو استهلاكية، لا تقوى على الفصل الجغرافي، توجد أخرى لا تتضرر بذلك طالما بقيت تكاليف النقل في حدود معينة. وهكذا أصبحت مسألة الكلفة أساساً لكل دراسة حول المسافة القصوى ودورها في تنظيم المجال الاقتصادي.

وعلاوة على ذلك فإن الجغرافيين عملوا أيضاً على استثمار هذا المفهوم في ميداني الإعلام والتنظيم السياسي والاداري. ولما كانت المنافسة عقبة تحد من تلك القدرة وتعمل على تقليصها فإن المؤسسات تجنح عادة إلى التجمع حتى لو لم تتوفر هناك مقتصَدات مغرية. ومن هنا ظهرت بوادر جغرافيا سياسية – اجتماعية عامة توضح ما للمؤسسات

Lacoste (Yves), **Géographie du sous-dévelopement,** 3° édit, Paris. P.U.F. 1976; **Unité et diversité du tiers monde,** Paris, Maspero. 1980, 3 vol.

55

Douglas Jackson (W.A.), **Politics and geographie relationships. Toward a new focus,** Englewood Cliffs, (N.J.), Prentice- Hall, 1964.

* **Robert A. Murdie**
* **Stuart Chapin**

56

التحليل البيئي العاملي طريقة توظف أساليب وتقنيات علم الاحصاء التي تسمح باختزال كم من المعلومات، بحيث لا يبقى منها إلا ما كانت له دلالة قوية، فتعالج عدداً من المتغيرات التي تهم سكان مدينة ما من حيث خصائصهم الديمغرافية والاقتصادية والاجتماعية والسكنية... الخ. ضمن وحدات التقسيم الاحصائي الرسمي لتلك المدينة.

57

Berry (Brian J.L.). Katherine S. Smith (edit), **City classificaton hand book : methods and applications,** New York, John Wiley, 1972.

58

Murdie (Robert), **Factorial ecology of metropolitan Toronto, 1951-1961, an essay on the social geography of a city,** Chicago, Departement of Geography, Rescarch Paper n° 116, 1969.

59

Chapin (F. Stuart), **Human activity patterns in the city. Things people do in time and space.** New York, John Wiky, 1976.

الاجتماعية والسياسية وشبكات الاتصال المترتبة عنها من دور حيوي في تنظيم المكان[61]. وبهذا تكون الجغرافيا الاجتماعية قد خطت خطوة واسعة تجاوزت بها مرحلة الوصف وتحديد مواقع الأحداث الاجتماعية كتوزيع أنماط الأسر والجماعات البشرية أو النطاقات اللغوية أو الهيئات السياسية أو التنظيمات الدينية أو الطبقات الاجتماعية... الخ؛ فأخذت تنظر إلى هذه الظواهر نظرة جديدة تجعل منها لبنات لهندسة اجتماعية تكون هي المفتاح الصحيح لفهم بنية المكان وهيكلته.

ولقد ترتب عن اكتمال النظرية السياسية الاجتماعية ثم تكاملها مع النظرية الاقتصادية تحول كبير في كيفية طرح المواضيع والنظر إلى الأشياء. فطالما اقتصر البحث عن نقل السلع ومسألة الأثمان كان من الممكن استعارة منهج العلوم البحتة وتطبيقه، لكن الوضع يختلف تماماً بمجرد اعتبار الأنظمة السياسية والاجتماعية التي تنطوي على أبعاد أخرى لا تعالج بنفس الطريقة. ومعنى هذا أن الاهتمامات بالجوانب النفسية والمعتقدات والايديولوجيات غدا، لمن أراد فهم المكان على حقيقته، أمراً لا فكاك منه.

لعل ما ميَّز العمل الجغرافي في هذه العقود الأخيرة الحافلة بالأحداث هو اهتمامها المتزايد بمسألة التنظير التي طالما شكلت إحدى نقط الضعف في المادة. وإذا كان قصب السبق يرجع بدون منازع إلى الجغرافيين الأنجلوسكسونيين والاسكندنافيين الذين ظلوا يتزعمون الحركة منذ اندلاع الثورة الكمية إلى بداية السبعينات، فإن التعميق الذي طبع الحقبة الموالية كان في الحقيقة من نصيب الدول الأوروبية التي لم تعرها وسائل الإعلام الجغرافي الأنجلو سكسوني المهيمن أي اهتمام يذكر.

4 ـ نحو مشروع جغرافي جديد ؟

إذا كانت الخمسينات تمثل بحق منعطفاً خطيراً وتحولًا حاسماً في مسار الفكر الجغرافي فإن أهم ما يميز هذا التطور إلى يومنا هذا هو بلا ريب انسلاخ الجغرافيا عن الطبيعيات التي اتخذها الجغرافيون منذ البداية قدوة لهم ونبراساً لتصبح بالتدريج علماً اجتماعياً صِرفاً يصبو إلى تحقيق

60

Portée-limite, المسافة القصوى maximale هي المسافة التي يتعذر بعدها كل اتصال، إما بسبب ارتفاع كلفة النقل فتصبح مساوية لقيمة السلعة أو الخدمة المطلوبة، وإما بسبب انعدام المواصلات ووسائل الإعلام.

61

Claval (Paul), **Principes de géographie sociale,** Paris, M. th. Génin et Litec, 1973; **Espace et pouvoir,** Paris, P.U.F, 1978; **Les cadres conceptuels de l'analyse des situations de conflit en géographie politique,** l'Espace geographique n° 4, 1987.

Jones (Emrys), John Eyles, **An introduction to social geography,** London, Oxford University Press, 1977.

Ley (David), **Social geography and social action,** in D. Leyard, M.S. Samuels (édit), **Humanistic géography,** op, cit.

Muir (Richard) **Modern political geography,** London, Mac Millan, 1975.

Pepper (David), Alan Jenkis, (edit), **The geography of space and war, Oxford, Blackwell, 1985.**

Prescott (J.R.V.), **Political geography,** London, Methuen, 1972.

Raffestin (Claude), **Pour une géographie du pouvoir,** Paris, Litec, 1980.

Taylor (Peter J.) **Political geography, world economy, nation state, Locality,** London, Longman, 1985.

غايات أخرى. لكن هذه التحولات الجذرية، التي لم تنته بعد، لم تكن شيئاً يسيراً لأنها طرأت في ظرف عصيب كانت فيه العلوم الاجتماعية الأخرى هي بدورها في مخاض عسير، تراجع نفسها وتحدد موقعها من علوم الطبيعة التي كانت وما تزال تؤثر فيها.

1.4 ـ تعاقب «الثورات» وتراكم النظريات

لما اندلعت الثورة الكمية في الخمسينات ثم انتصرت بفعلها الجغرافيا الجديدة اعتقد السواء الأعظم من الجغرافيين أنهم يعيشون ثورة علمية أصيلة وفقاً لما طلع به **طُومَسْ كُون** حول تطور العلوم. ثم قالوا نفس الشيء في السبعينات، وإن كانت الأحداث هذه المرة متزامنة وعلى نفس القدر من الأهمية. لذلك راح البعض يتساءل عن حقيقة هذه «الأزمات العلمية» التي تنفجر بين عشية وضحاها ! لكن أغلبية الدارسين يحصرون هذه المستجدات في حدثين بارزين : قيام الجغرافيا النقدية من جهة وانطلاق جغرافيا ظاهرياتية من جهة أخرى. وإن دلت هذه الإزدواجية على شيء فإنما تدل على عجز الفلسفات القائمة على استيعاب كل الأحداث وجمع شتاتها. وهذا ما استحث المفكرين على طرح البديل للخروج من المأزق.

1.1.4 ـ تصنيف هابِرمَاصْ للعلوم

ينتمي **هابِرْمَاصْ** كما نعلم إلى «مدرسة» فرانكفورت ويعد من ألمع مفكري «جيلها الثاني». وهو ليس فيلسوفا فحسب بل عالماً اجتماعياً أيضاً يطمح إلى لمّ شتات العلوم الاجتماعية. ويؤسس هابرماص عمله الابستمولوجي هذا بدءاً بمناقشة الثنائية الكنطية الجديدة الشهيرة التي تقابل التفسير السببي الذي هو قوام العلوم الطبيعية بالفهم الترميزي[62]، الذي يميز «العلوم الروحية» كما يراها **دِلْتي**. ويرمي هَابرْماص من وراء هذه المناقشة أساساً إلى التصدي للوضعية العِلمَوية ودحض مزاعمها بأن لا معرفة خارج العلوم الطبيعية التجريبية. فهَبرْماص، وفقاً للتقاليد الألمانية التي تعطي للعلم مدلولًا فضفاضاً، يمتنع عن التضييق والحصر معتبراً أن

62

الترميزيـــة Herménentique هي : «نظرية في تأويل الإشارات على أنها عناصر رمزية معبرة عن حضارة». جبور عبد النور وسهيل إدريس، المنهل قاموس فرنسي — عربي، بيروت دار الآداب ودار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1970. وبصفة أدق هي «النظر في قيمة الحكم والاستدلال مضموناً ومصدراً. القضايا الناتجة عن التأويل والنقد، أي المفهوم وهو ما يمكن تصوره، وهو عند المنطقيين ما حصل في العقل ويخص كل الآثار المكتوبة ثم كل أشكال التعبير الإنساني مكتوبة أو غير مكتوبة، وبالتالي مفهوم الوجود الإنساني».

للعلوم الاجتماعية مكانتها الشرعية، رغم حمولتها الفلسفية وشحنتها النقدية. كما أنه يرفض أن يقتصر العمل الإبستمولوجي على مجرد الرصد والتحليل لمنهج العلوم «الدقيقة». وبهذا يكون هابرْماص قد تجند، بجانب أدُرنو، لعقد مناظرة شهيرة مع كارْل پوپر و هـ. ألّبير حول الوضعية؛ وهي المناظرة التي هزت أركان العلوم عامة، والعلوم الاجتماعية خاصة، وحركت الأوساط الجامعية بألمانيا الغربية في عقد الستينات وما بعدها.

لكن النقاس الفلسفي حول إبستمولوجيا العلوم الاجتماعية لا يقف عند مهاجمة الوضعية بل يشمل أيضاً التفكير الترميزي كما جاء به چَدَمير* أو سار على نهجه، أو كما هو عند هَيْدچَر. ويعيب هابرْماص على هؤلاء الترميزيين وأولئك الوضعيين طبيعتهم «المحافظة». فالوضعية وإن تسترت في رداء عصري تظل خادمة للتكنولوجيا فتكون قادرة على العنف والتحطيم. أما الترميزيون فهم محافظون حقّاً لأن تعلقهم بالتقاليد والتشبث بها يجعلهم في النهاية يغرقون في التأملات، الشيء الذي يمنعهم من الحركة ويسلبهم الحسّ النقدي .

وبموازاة هذا الجدل الذي يتخذ من النظرية النقدية[63] مضماراً له تدرج هابرْماص إلى تصنيف ثلاثي للعلوم. فهو يعتقد أن البحث العلمي يحركه في المقام الأول مستلزمات الحياة ومتطلبات البشر الأولية التي تجعلهم يسعون إلى التحكم في محيطهم الطبيعي والسيطرة عليه. وهذا ما جعلهم يؤسسون العلوم الطبيعية أو العلوم التجريبية أو التجريبية – التحليلية كما يسميها هابرماص. وهي علوم تنِم عن «معرفة حملية». وقد تفضي إلى تطبيقات تقنية استناداً إلى التصور الوضعي لمنطق البحث العلمي كما يراه پوپر.

لكن البشر، بحكم تعايشهم الطبيعي، يحتاجون كذلك إلى التفاهم وربط الاتصال فيما بينهم. وهذا أمر على درجة عالية من الخطورة، وتضطلع بهذه المهمة «العلوم التاريخية – الترميزية»، أي العلوم الإنسانية أو «الروحية» بالمفهوم الألماني. فهي التي تقوم بربط الصلة بين ذات (حالية) تتطلع إلى المعرفة وموضوع، أي ذات ثانية (غائبة) لها رموزها وخصائصها الثقافية، وذلك بتأويل النصوص والآثار اعتماداً على فرض أو

63

النظرية النقدية عند هابرماص هي الماركسية كما يراها هو، أي ماركسية «غير قطعية» تستعيد بُعدها الفلسفي ولا تؤدي بها المادية إلى العِلمَوية؛ ماركسية لا تدعي تحقيق التاريخ وتمتنع عن النظر إلى المجتمع نظرة مادية صرفة؛ ماركسية تعترف بأهمية وخصوصيات البُنى الفوقية المعيارية للتقاليد الحضارية كالقانون والأخلاق والدين والفن... إلخ ،التي لا يجوز التقليل من شأنها واعتبارها مجرد إيديولوجيا، ليس إلا.

* H.G. Gadamer

«حكم سبقي» يشكل بالضرورة تأويلا ذاتيا طبقاً للطرح العام للنظرية الترميزية.

وإذا كان الاهتمام بحاجيات البشر وطموحاتهم تتلخص عادة في هاتين المسألتين، فإن هابرْماص يضيف شيئاً ثالثاً باعتبار أن كل فرد يسعى أيضاً إلى التفتح الكلي ويتطلع إلى التخلص من كل القيود الجائرة أو الزائدة التي تثقل كاهله. لذلك فهو يرى من الضروري قيام صنف ثالث من العلوم يسميها «علوماً نقدية». وهي قسمان : علم النفس من جهة، ونقد الايديولوجيات من جهة ثانية، أي السوسيولوجيا النقدية. وهي نظريته النقدية بالذات. وهكذا فإن العلوم الاجتماعية كما يراها هابرْماص ليست أحادية الحجر، بل مزدوجية البنيان تجمع بين الترميزية والنظرية النقدية.

4.1.2 ـ الجغرافيا في فلك النظرية النقدية

وانطلاقا من هذه الأفكار لهابرْماص جاء **رِتشَرد بِرنشطايْن*** في سنة 1976 يعطي تأويلاً لحركة إعادة بناء النظرية الاجتماعية والسياسية[64]، فاعتبر أن الأزمة التي تلت الوضعية ثم السلوكية والتي زعزعت في السبعينات العلوم الاجتماعية برمتها تشكل منعطفاً ينبىء بعهد «النقدية» بعد فترة الظاهريات التي سادت فيها العلوم الترميزية. فإذا كان اعتبار الدلالة ـ دلالة الأشياء والظواهر ـ يشكل مرحلة ضرورية في بناء العلم العصري، فهي مع ذلك لا تمثل سوى مرحلة تمهيدية وإعدادية، بحيث لا يكون العلم علماً إلا بالنقد كما حاول البعض تبرير ذلك[65].

ولقد اعتمد أحد الجغرافيين، وهو **دِرك جريجوري***، على هذه الآراء فراح يطبقها على التطورات- التي شهدتها الساحة الجغرافية في العقود الأخيرة؛ فبدا له أن التطور الأول الذي حدث في الستينات لم يستوعب جيداً خصوصيات العلوم الاجتماعية، لذلك انحازت الجغرافيا الجديدة للمذهب الوضعي فجاءت مخيبة للآمال. فهل يعمل الاتجاه الترميزي الذي دعا إليه أنصار الظاهريات في العقد الموالي إلى تقويم الوضع وتصحيح المسار ؟ صحيح أن هؤلاء الجغرافيين لا يخفى عليهم شيء من أمر

* **Richard J. Bernstein**

64

Bernstein (Richard J.) **The restructuring of social and political theory,** Oxpford, Blackwell, 1976.

65

Bhaskar (Roy), **The possibility of naturalism,** Brighton, Harvester Press, 1976 - Giddens (Anthony) **A contempory critique of historical materialism,** Londonn, Croom Helm, 1981.

* **Derck Gregory**

القصدية والدلالة وما يترتب عنهما من مشاكل ومعاناة لتحقيق التواصل والتفاهم بين الناس، لكن جريچوري يجد أن القنوع والاقتناع بهذا إنما يُنمَّان عن تفكير مبتور إذ لابد في رأيه من معرفة ما يختفي وراء القيم التي يعتبرها القوم قيماً ثابتة. لذلك راح يفضح ما فيها من وهم وتغرير. وعليه فإن الجغرافيا البشرية في نظرة لن تستطيع التخلص من أزمتها وتكتسب صفة العلم التي تنشُدها إلا بالأخذ بالمنهج الماركسي وتطبيقه[66].

ولقد لقيت هذه الأفكار في البداية الترحاب والتصفيق. لكن سرعان ما ارتفعت أصوات معادية تنتقدها وتفندها، محتجة بأن النظرية الماركسية لا تخدم أصلا الجغرافيا وأهدافها لأن الماركسية تحاول ضبط الآليات الأساسية للظواهر الجغرافية اعتماداً على التحليل التصوري دون مراعاة لعامل المكان[67]. كما أن بعض الماركسيين أنفسهم لم يتورعوا في توجيه النقد اللاذع لزملائهم الذين يحرفون المنهج العلمي عندما يطبقون بعض أشكال البنائية الماركسية تطبيقاً سيئاً[68]. وحتى جريچوري نفسه نجده في مقالات لاحقة يراجع نفسه ويعدل موقفه ويحاول التقليل من التعارض بين النزعة الظاهرياتية والضرورة النقدية، ساعيا إلى التوفيق بينهما وصهرهما في «مذهب إنسي – ماركسي».

2.4 ـ الجغرافيا الحديثة علم اجتماعي

إن المتفرس في تاريخ الفكر الجغرافي منذ الخمسينات يخلص لا محالة إلى فكرة أساسية ألا وهي استبدال الجغرافيا النموذج الاجتماعي بالنموذج الطبيعي الذي ظل يقودها السنين الطوال ويحجب عنها في نفس الوقت كثيراً من المسائل الاجتماعية التي لا غنى عنها لفهم الظواهر الاجتماعية فهما صحيحاً. وهذا التحول الهام الذي تم في ظروف شديدة الاضطراب، شعرت فيها العلوم الاجتماعية بخصوصيتها وأحست بما يميزها عن العلوم الطبيعية يعمل اليوم حثيثاً على توجيه الجغرافيا نحو إعداد مشروع جديد لم تكتمل ملامحه بعد.

1.2.4 ـ الأطوار الكبرى للجغرافيا

لعلنا نتذكر أن أول وأهم نقطة تحول في مسار الجغرافيا العصرية

66

Geogory (Derk) **Ideology, science and human geography,** London, Hutchinson, 1978.

67

إن العلاقة بين الجغرافيا والماركسية ما تزال إلى يومنا هذا تشكل نقطة خلاف كبير وموضوع نقاش حاد بين الجغرافيين كما يدل على ذلك الجدل بين پول كلفال مثلا ومعارضيه الماركسيين. أنظر :

Claval (Paul), **Le marxisme et l'espace,** l'Espace géographique, n° 3, 1977, p. 145-164.

Collectif de chercheurs de Bordeaux. **A propos de l'article de P. Claval «le marxisme et l'espace».** l'Espace géographique, idem, p 165-177.

Claval (Paul), **Le néo-marxisme et l'espace,** l'Espace geographique, n° 3, 1987. p 161-166.

Lung (Yannik), **Le néo-marxisme et l'espace, réponse à Paul Claval,** l'Espace géographique, n° 3, 1988, p 47-50.

68

Hindess (Barry), **Philosophy and methodology in social science,** Brighton, Harvester Press, 1977.

طرأت لما حاول الجغرافيون الرد على تساؤلات الفلسفة الطبيعية التي ازدهرت في الديار الألمانية في القرن الثامن عشر. لكن الجغرافيا لم تحتل المكانة الرفيعة إلا في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر. وترجع تلك الطفرة إلى طلبات المجتمع آنذاك أكثر مما تعود إلى اجتهادات الجغرافيا نفسها. ولكي تقوم الجغرافيا بالدور الذي أسند إليها وتؤدي الرسالة التي أنيطت بها كان لزاماً أن تصبح تخصصا علميا. ومن أجل ذلك تشبهت بالعلوم الطبيعية واستعارت منهجها فانصرف الجغرافيون طيلة نصف قرن من الزمن يزاولون نشاطهم بكل ثقة واطمئنان، الوضعية مذهبهم والطبيعيات منهجهم؛ أما المجتمع فهو مجتمع تقليدي ما يزال يتخبط في مشاكل باطنية لم تَطف بعد على السطح بالقدر الذي يلفت إليها نظر الجغرافيين.

لكن الوضع أخذ يتطور بسرعة مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية نتيجة القلق الذي أصاب الجغرافيين لما شعر بعضهم بإهمال الجغرافيا قضايا المجتمع والتفريط فيها. واستدراكاً للموقف لم يجد هؤلاء ساعتئذ منفذاً لمأزقهم هذا غير الارتماء في أحضان الاقتصاد الذي تبني البعد المكاني فأصبح يمدهم بالعديد من المفاهيم والأدوات التي يمكن استعمالها بيسر وبساطة في ميدان التخطيط وإعداد التراب الوطني. غير أن التوسع الاقتصادي الهائل الذي شهده الغرب عموماً والذي بلغ أوجه في الستينات أضحى يطرح جملة من المشاكل المستعصية احتلت فيها مسألة العدالة الاجتماعية موقع الصدارة. وهذا ما جعل التيار الراديكالي يتقوى ويوجه البحث في الجغرافيا كما في سائر العلوم الاجتماعية الأخرى. وبقدر ما يحيّي المرء الجغرافيين ويشد على يدهم على اهتمامهم بقضايا الناس، بقدر ما يندهش لإغفالهم مشاكل البيئة الطبيعية التي كانت الجغرافيا سباقة إلى الاعتناء بها منذ ما يقرب من مائة عام[69].

فهل يعود ذلك إلى انفعال سطحي للجغرافيين إزاء المستجدات الطارئة على الساحة الفكرية والانبهار بنماذج بعض العلوم الاجتماعية ؟ فكيفما كان الحال فهم في الستينات يؤمنون بالوضعية ويأخذون بالمناهج الكمية «الدقيقة»، وفي السبعينات حيارى يكاد يقتلهم اليأس ! وهم حينما

69

يشكل موضوع البيئة كما هو معلوم أحد المواضيع الرئيسية للجغرافيا. فإذا بقيت الجغرافيا السفياتية ـــ سواء في الاتحاد السفياتي أو في بلدان المعسكر الاشتراكي ـــ تباشره وتطوره لأسباب إيديولوجية سبق شرحها (راجع الفقرة 2.1.3. من الفصل الثاني)، ففي الغرب يعد **ماكس صور** Max Sorre في الأربعينات من أواخر الجغرافيين الكبار الذي ظل على العهد، باحثار مجتهداً.

يستندون إلى مذهب معين أو بحث إبستمولوجي أو نتيجة علمية لا يفعلون ذلك إلا بقصد التبرير والاحتماء.

2.2.4 ـ استكمال المعادلة ؟

وعلى كل حال فإن هذه التطورات التي شهدتها الجغرافيا الحديثة منذ ثلاثين سنة لم تنبع هذه المرة من المحيط الاجتماعي بقدر ما صدرت عن الجغرافيا نفسها ومنطقها الذاتي الذي اقتضى بناء نسق فكري متماسك يلائم الواقع الاجتماعي. وخلافاً لما كانت عليه الجغرافيا كدراسة إقليمية أو بيئية أو مشهدية، نراها اليوم تظهر كتخصص يُعني بالأبعاد المكانية للحياة البشرية عامة، والاجتماعية خاصة، مع مراعاة المحيط البيئي الذي لا يمكن لأي جغرافي جاد أن يتنصل عنه.

ولما كانت الحياة الاجتماعية تقوم على التعاون بين الناس لتحقيق التعايش والرفاهية، ظلت العلوم الاجتماعية، وإلى زمن قريب تركز اهتمامها بالذات، وبالدرجة الأولى، على المجتمع. ولعل ما جعل الجغرافيين، حديثي العهد بالموضوع، يسارعون إلى الاقتداء ببعضها وإن كان منها ما أهمل الفرد ولم يعطه المكانة اللائقة به كالاقتصاد الذي أغرى الجغرافيا بتصوره المتماسك للعمليات الاقتصادية في بعدها المكاني. ولا شك أن النموذج الاقتصادي الذي استهوى الجغرافيين على اختلاف انتماءاتهم وتعدد مشاربهم هو الذي حفزهم فيما بعد، في السبعينات، على محاولة صياغة نظرية مكانية مماثلة تشمل العمليات الاجتماعية والسياسية معاً، ما دام أهل الاختصاص من علماء اجتماع وإناسة وسياسة وغيرهم لم يقدموا ما يلبي رغبات التحليل الجغرافي.

إن النماذج الاجتماعية، التي لم تعط الفرد حقه، لا تستطيع أن تخبرنا عن تفاعل الإنسان، لا مع بيئته ولا مع المؤسسات التي تسوسه. كما أنها لا تحدثنا عن موقفه منها، قابلاً أو رافضاً؛ ولا تفصح عن مدلولها بالنسبة إليه. ومعنى هذا أن تلك التساؤلات وغيرها تستلزم بناء نماذج إنسانية تكتمل فيها كل عناصر الموضوع. فالجغرافيا التقليدية بحكم نزعتها الطبيعية لم يغب عنها هذا الأمر حيث كان الباحث، نظراً لتكوينه الأصلي

واطلاعه الواسع على «الانسانيات»، يتقن فن المقابلة ويحسن الإصغاء إلى الناس. لكن هذا الحس، وإن لم تترجمه أعمال السابقين كما يجب، تراجع كثيراً في الستينات ليعود من جديد في العقد الموالي تحت تأثير الظاهريات حتى أصبحت الجغرافيا تسير على شاكلة العلوم الاجتماعية التي أخذ بعضها كالإنساة والتاريخ ينظر إلى المسألة نظرة جديدة. فلما أضحى موضوع الإنسان البدائي ينكمش ويجف بدأ الإناسيون يولون اهتمامهم للإنسان المعاصر ضاربين عصفورين بحجر واحد : فهم من جهة تلخصوا من الأزمة الخانقة التي كادت تقتلهم، ومن جهة أخرى بادروا إلى وضع يديهم على موضوع أهمله الكثير. أما في التاريخ فإن الأبحاث أصبحت تميل بالتدريج من الانشغالات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي إلى الاعتناء بالعقليات.

لكن موضوع الإنسان، رغم أهميته وطرافته، لم يكن ليحجب عن البحث الجغرافي القضايا الأخرى وعلى رأسها العدالة الاجتماعية التي جاهد من أجلها الراديكاليون، بدءاً بانتقاد الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية وانتهاءاً برسم أنماط مكانية بديلة ودراسة البيئة التي أصبحت جذعاً مشتركاً لكثير من العلوم.